صور ذكرياتي في بلاد النوبة:

إلى عنيبة ! !

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

ما كاد القطار يتحرك من أسوان متجها إلى الشلال . حتى أحسست وزملائي براحة لا تدانيها راحة ، وهدوء لا يمائله هدوء فقد مكثنا بأسوان خمسة أيام بلياليها على الرغم منا ، إذا أننا لم نجد أمكنة في الباخرة التي ستقلنا إلى ذلك المكان النائي البعيد في بلادنا المصرية .

ومجيب أن نشعر بالراحة والطمأنينة ، ونحن في طريقنا إلى بلدة لا نعرف عنها شيئا ، ولا ندري من أمرها إلا ما يرغب عنها مما استمعنا إليه من أفواه المتحدثين — ولكن هذا دائما شعور كل مسافر ، فإنه يود أن يصل إلى غايته بأي ثمن .

ولا يمكنني بوجه من الوجوه أن أعبر عن مقدار الرهبة التي سيطرت علينا ، والخوف الذي ملأ قلوبنا عندما وصل القطار إلى الشلال . وعندما شارفنا النيل ، بأتساعه وروعته ... ووقف القطار وزكمت أنوفنا رائحة الشواء العجيب .. شواء السمك ، والطعمية وألوان مختلطة من الأطعمة الملوثة بالتراب ، والرمال التي تهب مع الريح من فوق السفح والجبل من هنا وهناك ..

وركبنا الباخرة البطيئة (توشكي) وهي إحدى البواخر المصرية التي استولت عليها الحكومة السودانية ظلما سنة ١٩٢٥ ، وأخذنا أماكننا في ثلاث مقصورات متجاورة ، وسارت الباخرة في الثانية مساء رويداً رويداً ، تشق صفحة الماء في بطء ، وكأنما هي شيخ محطم أثقلته الخطوب ، وآدته فوادح الزمن ، فمضى يمدر ، ويجمع قواه المتهدمة ، ويلهث ويحشرج ، ومع هذا تخونه دائما قواه ، ولا يحصل من هذا كله إلا على ما يكفيه ليسير بطيئا ، متئد الخطا ، كأنما يجر وراءه جبال الدنيا بأرسان من حديد .. !

يا لله : إننا لا نرى من هنا أو هناك ، سوى جبال شامخة ، بينها تلول من الرمال .. ما أروع هذا المنظر العجيب .. جبال سمراء ، وأخرى حمراء قانية ، وبينها رمال منسابة متحدرة ، تخالها أنهارا من الذهب الوهاج . !

وهنا وهناك على الشاطىء من الجانبين نجوع تختلف باختلاف طبيعة الأرض ، فهذا نجع يرتفع عن شاطىء النيل بمتر واحد أو مترين على الأكثر ، ويحتضنه الجبل في حنان ودعة ، كما يحتضن الأب الرحيم ولده في حرارة الشمس اللاذعة خشية أن تفتك به ، وتضربه ضربة لا يفيق منها مدى الحياة .

وهذا نجع آخر يسير مع الشاطىء في تتابع وتناثر .. بيوت متواضعة متفرقة إن صح أن تسمى هذه الأكواخ المتواضعة بيوتا وتسير مع الشاطىء ألفي متر أو تزيد ، بيد أنها ليست عريضة عامرة بالسكان ، آهلة بالناس ، ولكنها ضيقة لا تكاد ترى فيها أثراً من آثار الحياة ، اللهم إلا أشباحا هزيلة ضعيفة ، تبدو عليها آثار الفاقة ، وسيما الضنى واللوعة ، والأسى والهمود .

وهذا نجع ثالث تخاله ميتا لا يتنفس فيه حي ، ولا يعيش فيه مخلوق ، ولكن الباخرة إذا وقفت ، وارتفع صفيرها في الجو ، انبعث الرجال والنساء من كل حدب وصوب ، يتلقون (القافلة) المائية . التي تسير في عرض النيل على بركة الله ، تحمل لهم الزاد والمؤنة ، والكسى والمتاع .. إنهم ينتظرونها مرة في كل أسبوع قادمة من الشلال ، ومرة أخرى قادمة من حلفا ، وفيها البريد .. حتى إذا ارتفع في الهواء لها دخان ، وعلا لها صوت ، انطلقت الحناجر مدوية من هنا وهناك ، في فرح ومرح وبشر وسرور ، فهذا موعد الرسائل من الأحباب والأزواج ... والآباء والأعمام .

أجل فأهل هذه النجوع يحيون وأكثرهم نساء مترملات أو في حكم المترملات ، فهن لم يفقدن العائل بالموت ، ولكنهن فقدنه بالبعد والفراق ، وطول المسافة التي يضل فيها الرسول ، والنوى الذي يكاد تتقطع معه سبل الوصل واللقاء ..

وهذا نجع رابع — ومثله كثير — مرتفع جدا ، فهو على ارتفاع خمسين مترا تقريبا من سطح النيل ، على ربوة مرتفعة صخرية ، عليها المساكن شامخة على الرغم من حقارتها ، عزيزة مع ما هي فيه من ضآلة الشأن ، وقلة القيمة . إن الباخرة لتنقب أمام هذه النجوع كأنما هي سائلة حقيرة تستجدي الأكف ،

وتطلب من الناس المعونة والاحسان . !

يا لله ! ما أعجب هؤلاء الذين يقبلون من فوق الجبـل من الرجال والنساء ، والبنات والأولاد الصغار فى سرعة عجيبة ، يقفزون فوق الصخور ، على مسافات شاسعة ، بسرعة توقعك فى الحيرة والخوف ، تظن بأن أحدهم سينحدر إلى الهوة العميقة لاقيامة له منها ، ولكن شيئا من هذا لم يحصل . وكأنما بينهم وبين هذه الصخور المحدبة الدقيقة عهد وميثاق ، لا تؤذى أحدا منهم أو تناله بمكروه . وما أعجب مظهرهم وهم يغدون زرافات ووحدانا فى ثياب بيض ، وعمائم مثل الثياب . تتماثل كلها فى طرازها وهيئتها وحياكتها . وما الثوب إلا قميص له جيب واسع ، وأكمام فضفاضة ، والعمامة مكورة فى ضخامة تأبى القلة ، وتأنف من البخل والتقتير ، ومن تحت العمامة ترى هـذه الوجوه السود ، ونلمع تلك الأسنان الناصعة البياض ، وتلك العيون الحوراء . وتلوح من جيب القميص ، تلك الصدور السود . ومن أسفل القميص تلك الأرجل الفلطحة .. إنه لمنظر يستهوى الأفئدة . وينسى العقول ، وخاصة تلك السذاجة التى تدفعك دفعا لاحترام هؤلاء ، أو بالحرى الرثاء لحالهم ، والإشفاق بهم ، والعطف عليهم أجل . فانك إذا تفقدت أحوالهم ، واطلعت على مواردهم ، أخذ العجب منك كل مأخذ ، وملك الدهش عليك عواطفك . ووجدت نفسك متسائلا فى إلحاح : من أين يعيش هؤلاء ؟

ولن تجد جوابا شافيا على تساؤلك ، سوى الإيمان المطلق والتسليم المطلق . الإيمان بالله الخالق الأكبر ، والتسليم لله الذى لاينسى ، ومحال أن ينسى عبدا خلقه وسواه ، وشق سمعه وبصره ، فخالق الكون كفل الرزق والحياة لكل فرد من الناس ، مادام له عمر ممدود ، وأجل محدود ، كائنا من كان ، صدق الله العظيم . « وفى السماء رزقكم وماتوعدون »

وكأنى بهذا الشيخ القبل من تجمع (السبوع) لنباية فى نفسه ، فماهى يا ترى هذه النباية ؟ إن منظره ليثير فى النفس عوامل الأسى واللوعة ، والشفقة والحزن .. إنه قد جاوز الثمانين دون ريب .. أحناه الدهر فكأنما هو قوس متحرك . يتوكأ فى بطء شديد على عصاه . وكأنما هذه العصا رجل ثالثة يدب بها على الأرض ، لارتيابه فى رجليه واعتقاده أنهما لم يحملاه إلى ما يريد ، ومع ذلك فهـو يهرول بشدة ، ولكنه لايبلغ السرعة التى يريدها ويتمناها ، فإن أنفاسه منقطعة ، وعيشه شديد الوطأة ، أليم الخطر ..

وبلاء .. لقد وصلت الباخرة ورست على الشاطىء أمام تجمع (السبوع) ووصل الشيخ المتهدم إلى المرفأ ، وجلس متكئا على عصاه أيضا ، واعتمد برأسه عليها فى اطمئنان عجيب .. ولكنه لم يسافر ؟ ولم ينزل إليه من الباخرة أحد ؟ حتى أن من نزل لم يعرج عليه .. ترى أكان ينتظر بريدا ؟ أم تموينا ؟ أم عزيزا لديه من ولد أو حفيد ؟ لم يبد عليه شىء من ذلك ، بيد أن ملامحه كانت تنطق بشىء خفى غريب ، ذلك أنه يأنس بالباخرة ، وأصوات من فيها ، ويطرب بذلك الهرج الذى يحدثه الركاب حينما تقف بين حين وحين . إنها تذكره بعهد الشباب والصبا ، يوم أن كان يقفز هنا وهناك دون حاجة إلى سند أو معين ولا افتقار إلى تلك العصا اللعينة التى تضيق عليه الخناق فهى تلازمه فى كل مكان وزمان .. ومن يدرى فربما تذكره هذه الباخرة بابن له افتقده فى ميعة صباه فهو يحن إليها كلما ترسو ، فيقبل وكأنما ليلقى فيها ابنه الراحل ، وفلذة كبده العزيز .. وارتفع صفير الباخرة وأخذت تبتعد عن المرفأ ، فجمع الشيخ أطراف نفسه ، وقام متحاملا عليها ، وعاد كما جاء ، ولا يزال بصره عالقا بالباخرة ومن فيها وكأنما يودعهم الوداع الأخير .

عبد الحفيظ أبو السعود

إدارة الهندسية القروية بالقليوبية

تعلن عن إصلاح دورتى مياه مسجدى عزبة القصيريين قسم شبرا مصر وهاشم أغا بمهمشة محافظة مصر وقد تحدد ظهر يوم ٢٣ /٨/ ١٩٤٧ لفتح المظاريف وثمن الشروط والمواصفات جنيه مصرى واحد بخلاف مائة مليم بريد وتطلب من الادارة على ورقة تمغة ويمكن الاطلاع على الرسومات بالادارة بينها ٧٦٠٠